



سارعوا إلى التوبة..

آثار الذنوب على الفرد والمجتمع

إن المعاصي التي يقتربها الناس أثناء الليل وأطراف النهار لها آثار مدمرة على الفرد والمجتمع والحياة كلها وذلك أن قوام الحياة وصداها إنما هو في الطاعة والاستقامة على أمر الله والمتقيد بشرعه الحنيف وكل انحراف عن أمره وكل اتباع لنزغات الشيطان وكل تفلت من دينه إنما هو ركض وراء السراب وضرب في تيه المشقاء ولما بد أن يلمس الإنسان آثارها النكرة في نفسه وحياته ثم في أخراه يوم لقاء ربه.

والمقصود من الحديث عن آثار المعاصي هو التحذير من مغبة الاسترسال فيها وإطلاق العنان للخوض في حدود الله وهو من باب قول القائل قديماً:

عرفت الشر لا للشر***ر لكن لتوقيه

ومن لا يعرف الشر***من الخير يقع فيه

من آثار الذنوب والمعاصي

وهذه بعض تلك الثمار المرة التي يجنيها العصاة الآثمون من وراء المعاصي:

أولاً: نسيان العلم وذهاب الحفظ ويا لها من عقوبة! وما أقساها على أهل العلم وطلبته! وذلك أن العلم نور يقذفه الله في القلوب العامرة بطاعته المنبئة إليه سبحانه والمعصية ظلمة قد علاها قمار الشهوات الهوجاء وأنى للنور أن يأنس بالظلام؟! ولذلك روي أن الإمام الشافعي -رحمه الله- لما جلس بين يدي إمام دار الهجرة الإمام مالك -رحمه الله- ورأى عليه مخايل النجاسة والمذكاء بادية وأعجبه وفور عقله وكمال حفظه قال له ناصحاً: إني أرى الله قد ألقى على قلبك نوراً فلا تطفئه بظلمة المعصية. والشافعي -رحمه الله- هو القائل في الأبيات التي سارت بين طلبه العلم مسير الشمس:

شكوت إلى وكيع سوء حفظي *** فأرشدني إلى ترك المعاصي

وأخبرني بأن العلم نور *** ونور الله لا يهدي لعاصي

وقد يتساءل إنسان فيقول: إن فلاناً من الناس قد أعطي حفظاً واستحضاراً على فجوره الذي عُرف به في الناس فكيف ذلك؟!

فنقول: اقرأ كتاب الله تعالى تجد الجواب واضحاً يقول الله عز وجل: (وَإِلَّاهُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ) [البقرة: 129] أي: إلهنا فإن سلخ من هذا فأتبعه الشيطان فإن من الغاوين * ولوشئنا لرفعناه بهدًى ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث {المأعراف: 175-176}.

يقول الإمام ابن القيم -رحمه الله- معلقاً: ففى الآية دليل على أنه ليس كل من آتاه الله العلم فقد رضعه به إنما الرضعة بالعلم درجة فوق مجرد إتيانه .

كم من فاجر كان حظه من العلم قليل وقالوا ليكون ذلك حجةً عليه عند الله دون حقيقة العلم التي تورث الخشية والإنابة. فإما معشر طلبة العلم لنتق الله في أعز أيام العمر التي صُرِفَت في الحفظ والركض وراء عرائس العلم أن تذهب بها غوائل المعاصي الجاحمة واعلموا أن سوط العقاب بالمرصاد.

ثانيًا: ومن أعظم آثار المعاصي وأخطرها على العبد الوحشة التي تحدثها المعاصي بين العبد وربّه واستثقال الطاعات واستمرار الفواحش واعتياد لها.. ويا لها من سكرة؛ وما أشدّ عماها على القلب؛ إن لم يُمدّ صاحبها بنفحة من نضحات الرحمة والهداية فإنه واقع في حفرة من حفر المشقاء والعذاب الموصِب لا محالة.

إن حياة المرء الحقيقية إنما هي حياة الطاعة وشعور العبد أنه خلع عنه ربقة العبودية للخلق وأوى إلى ظلال العبودية الحقّة التي ترفعُه عن الطين وجواذبه ليحيط رجال القلب في ساحات العبودية لله رب العالمين ولهذا جعل الله الكافر ميتاً غير حي فقال: (أَمْ وَاتَّغَيَّرَ أَحْيَاءُ) [النحل: 21]. وتأملوا بالمقابل في قول بعض الصالحين المخبتين الذين وجدوا برد الطاعة والإنابة إذ يقول: إنه لتمر بالقلب لحظات أقول فيها: إن كان أهل الجنة في مثل هذا إنهم لفي خير عظيم .

إن في الدنيا جنة لا يدخل جنة الآخرة من لم يدخلها إنها جنة الطاعة والعبودية التي يُحرّم منها العصاة المضجرة.

ثالثاً: من آثار المعاصي النكرة -الحيرة والشقاء وتمزّق القلب في شعاب الدنيا والملهث وراء السراب واتباع الشياطين المتربصة على أضواءه السبل المنحرفة عن السبيل الحق.

روى البخاري في صحيحه من حديث عبد الله بن مسعود -رضي الله عنه- قال: خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطاً مستقيماً في الأرض ثم خطّ خطوطاً عن يمينه وشماله ثم قال: هذا سبيل الله وهذه السبل وعلى كل سبيل منها شيطان يدعو إليها ثم قرأ: (وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعْهُ وَلَا تَتَّبِعْ عَوَا السُّبُلِ فَتَفَرِّقَ بَيْنَكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ) [الأنعام: 153].

وذلك أن الله تعالى هو المتفرد بالهداية وحده (من يهده الله فاهو الهدى ومن يضلّ الله فليس له ولياً مرشداً) [المكف: 17]. وكل انحراف عن منهجه -سبحانه- الذي وضعه طريقاً للهداية إنما هو خبط في بيداء التيه وجني للشقاء المر الذي هوت فيه الشعوب الكافرة التي ولّت ظهرها للحق المنزل.

يقول العلماء: إن هناك أربعة أسئلة تطرح نفسها بالحاج على الإنسان بمقتضى فطرته وهي: من أين جئت؟ وإلى أين المصير؟ ولماذا؟ وكيف؟ وكل خلل في الإجابة عن واحد من هذه الأسئلة الخالدة يعني المشقاء والدمار في حياة الإنسان ولما وجود للإجابات الصحيحة إلّا في الدين الحق.

وإن نظراً واحدة على واقع الغرب الكافر وما يعيشه من ضياع فكري وتفسّخ أخلاقي بل ونزول بالإنسان إلى دركات الحيوانية المهابطة تنبئك بالحقيقة لأن بعض فلاسفتهم المشهورين أطلق مقولته الفاجرة: أن لا هدف ولا غاية من وجود الإنسان. فظهرت في أوروبا جماعات تسمى بالخنافس تتسافد في الطرقات تسافد الحُر وتعيش عيشة البهائم البكماء وصدق الله العظيم إذ يقول: (ومن أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمًى) [طه: 124].

رابعاً: ومنها تسليط الأعداء وذهاب القوة ونزع الهيبة من قلوب الأعداء.

روى الإمام أحمد في مسنده من حديث عبد الله بن عمر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: بُعثت بالسيف بين يدي الساعة حتى يعبد الله وحده لا شريك له وجعل رزقي تحت ظل رمحي وجعل الذلة من الصغار على من خالف أمري من تشبه بقوم فهو منهم .

إن صحائف التاريخ خير شاهد على عجيب تأثير المعاصي في الأمم لقد كانت أمة الإسلام في سالف دهرها أمة موقورة الكرامة عزيزة الجانب مرهوبة القوة عظيمة الشوكة لكنها أضاعت أمر الله وأقصدت شريعته من حياتها وراجت أسواق الشرك في أصقاع كثيرة في العالم الإسلامي فصار أمرها إلى إديار وعزها إلى ذل وجثم على صدرها ليل طويل من الاستعمار الكافر ولولا أنها الأمة الخاتمة لأصبحت تاريخاً دابراً تحكيه الأجيال!!

وليس الذي حل بنا ويحل ظلماً من ربنا.. كلا وحاشا فهو القاتل في الحديث القدسي الصحيح: يَا عِبَادِي إِنِّي حَرَمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا فَلَا تَظَالَمُوا . وإنما هي السنن الربانية النافذة التي لا تحابي أحداً (إن الله لا يغيّر ما بقوم حتّى يغيّروا ما بأنفسهم) [المرعد: 11] (ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْ عَمِدَ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يَغْيُرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ) [الأنفال: 53].

روى الإمام أحمد في مسنده من حديث ثوبان مرفوعاً: يوشك أن تداعى عليكم الأمم من كل أفق كما تداعى الأكلة على قصعتها. قلنا: يا رسول الله أمن قلة منا يومئذ؟ قال صلى الله عليه وسلم: أنتم يومئذ كثير ولكنكم غثاء كغذاء السيل تَنْزَعُ المهابة من قلوب عدوكم ويجعل في قلوبكم الدوهن . قالوا: وما الدوهن؟ قال صلى الله عليه وسلم: حب الدنيا وكرهية الموت .

إننا -معاشر المسلمين- اليوم نئن تحت وطأة الذل المسلط علينا وكثير من المسلمين لا يزالون غافلين عن سبب البلاء الذي بيّنه

رسولنا صلى الله عليه وسلم في غير ما حديث صحيح فعن ابن عمر -رضي الله عنهما- قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إذا ضلّ الناس بالدينار والدرهم وتبايعوا بالعينة وتبعوا أذناب البقر وتركوا الجهاد في سبيل الله سلّط الله عليهم ذلًّا لا يرضعه حتى يرجعوا دينهم (رواه أبو داود وأحمد).

ويقول أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه: إننا كنا قومًا أدلة فأعزنا الله بهذا الدين فإن ابتغينا العزة في غيره أدلنا الله . من هنا كانت البداية ومن هنا يكون البدء ومن تركنا لديننا كانت بداية رحلة الدلّ والضياح في تاريخ أمة الإسلام ومن الرجوع إلى ديننا وتوبتنا إلى ربنا يكون البدء إذا أردنا العودة إلى العزة المقعساء والمشرّف المفقود.

إن كل تائب منّا من معاصيه عليه أن يعلم أنه يكتب بذلك سطرًا في سفر مجد أمة التوحيد.

خامسًا: ومن شؤون المعاصي ظهور الأوجاع الفتاكة وارتفاع البركة من الأقوات والأرزاق.

عن ابن عمر -رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يا معشر المهاجرين خمس إذا ابتليتم بهن وأعوذ بالله أن تدركوهن: ما ظهرت الفاحشة في قوم حتى أعلنوا بها إلا ابتلوا بالطواغيت والأوجاع التي لم تكن في أسلافهم الذين مضوا ولما نقص قوم المكيال والميزان إلا ابتلوا بالسنين وشدة المؤونة وجور السلطان وما منع قوم زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء ولولا البهائم لم يمطروا ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلط الله عليهم عدوًّا فآخذوا بعض ما في أيديهم وما لم تعمل أئمتهم بكتاب الله ويتخيروا مما أنزل الله إلا جعل الله بأسهم بينهم (رواه ابن ماجه وهو صحيح. السلسلة الصحيحة 106).

هذه بعض آثار المعاصي المدمرة وهذه بعض ثمارها النكدة فهل من مشمّر تائب منيب (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) [الزمر: 53].